براءة متهم

تأليف :

مرح إبراهيم سلوم

المقدمة :

فرحةٌ عَارِمة تَطُلُ على مَنزل العائلة، في تَتويجِ فتاتِهم المَصونة "روان" إلى"عُش الزوجية" على من عَاشَ معها جُلَ ذكرياتِ طُفُولَتِها، حيثُ كانت شُرفَتَهُما جِوَارَ البَعض...

كانَ "آدم" صديق ياسر شقيقَ روان...

في رِحابِ تِلكَ الإستعدادَتِ المُصحَبَةُ بإنشغالِ تلكَ العائلة، ولا سيَّما والدة روان وشَقِيقاتها الصِغار...

كانت روان تَكْبُرُهُنَّ بِسنوات، ولكنها كانت بِمثابةِ الصديقة والشقيقةُ الحنونة لديهُنَّ...

كانت تعلم أنَّ رابطَةَ الأُخُوة كَمَثَلِ الجَلمود، يَصُعبُ كَسْرُها...

كانت تُعامِلهنَّ برفقٍ تام، كمعاملةِ الطَيرِ لصغارهِ في وكناتهِ...

حتى أنَّ "مَيس" أصغر شقيقَتِها تَحملُ لروان حباً جمَّا، وعند النوم، تَصعدِ بِجِوارِها...
كانت يداً حانيةً وعطوفة، تمتلكُ قلباً كبياضِ الثلجِ الناصع...

ولكن ما كَان يُحزنُ روان أنها منذُ صِغَرِهَا لم تكن تشعر بشيءٍ تِجاهَ آدم.

فقط ما كَانَ يَستوقِفُها عن رفضِهِ، أحاديثُ أَبيِها المُستمرة عن حُسنِ صِفاتهِ وأخلاقهِ الحميدة...

ولَكِنَّ قَلبُ روان كانَ يهوى زميلاً لها في الدراسة، قد رافقها طولَ سنين المعرفة...
كان يُساعِدَها في ما يَصعُبُ عليها من أبحاثٍ جامعية...
قد باتَ يصونُ الودَ إليها ...
تعلقَ قلبهُا بهِ، وكَان "أحمد" يُجاهِدُ من أجلِ كَسبِها بالحَلالِ المبين...
طوالَ تِلكَ الفترة، كان يسعى لِبِنَاءِ ذاتهِ ليتَقَدمَ لِخُطبَتِها...

ظروف أحمد الذي كَانَ يُنفِقُ على إخوَتِهِ بعد وفاةِ والِدِهِ كان يُعرقِلُ حُلمَهُ بطلبِ يَدِها...

ـ"تزوجوا بما تَيَسرَ لكم، فالقلوبُ تهوى قلباً خلوقاً، والمالُ لا يصنعُ رجلاً ولا يصنعُ كوخاً من السعادة "...

وشَاءت الأقدار أن تُكتبَ من نصيب "آدم"

ـ"أَشَد ما يُحزن المَرء أن يَتعلقَ قلبهُ بشيئاً ليس من نَصيبه"

حينها تشعرُ بخذلانٍ كبير، وكأنما سُلبت مِنكَ إرادَتُكَ، وأُلجمتَ حتى ما عَاد الحديثُ يجبرُ كسوراً أزلية...

ذكرياتٌ أوقظت بناتُ عَينِ روان، ولكنها إصطبرت بِرِضا أهلِها، وأقاويلُ أهل الحي الحَسُنة عن آدم...

ـ الثالث من أبريل

والدة روان : أستيقظي يا روان، إنَّ صاحبة المشغل قد حادَثتني بِشأنِ ثَوبُ عرسك، هيا بنا لنذهَبَ لرؤيتهِ
ـ روان : ألا يُمكِنُنا أن نذهَبَ غداً يا أمي؟
حقاِ أنني بمزاجٍ غير جيد

والدة روان : كفاكِ نوماً يا بُنَيتي، وإنهضي إنني في إنتظَارك

لم تكن روان تَشعر بِلهفةٍ وهي تنتَقي ما سترتديهِ في ليلة العمر، حتى تعابيرُ وجهِها تعتليها الحزن والأسى فقدت الشغف إنتقاءِ تفاصيلِ العمر أجمع...

مضت الأيام بِحُلوها ومرها، بتعاسَتِها وبكل ما تحملهُ...

ـ"هكذا هي الحياة، لا يتسوقفها ما نبدوا عليه، هي فقط تمضي بنا وبدواخِلِنا المكنونة بغض النظر عن ماهيتها ".

ـ الرابع من أبريل
بعد مرورِ عام

ـ آدم :
اليوم ذكرى زواجِنا يا روان، ها قد مر عامٌ دُمتي فيهِ زوجتي المصونة ومَن أختارهُ قلبي ويهواهُ
ـ روان :
دُمتَ يا عزيزي لي، ولكنني أودُ أن أحتفل بمرورِ مثل هذهِ الذكرى مع أهلي وصديقاتي ومن أُحِب
ـ آدم :
جُلَ ما تطلبينهُ مُجاب، وما دُمتُ حياً لن أترُكَ شيئاً في نَفسكِ إلا وكان لكِ

أكتبي مشترياتُكِ التي تحتاجينها وسأجلبهُا لكِ

وفي المساء، حَضَر المدعوُن من عائلة روان وأقارب آدم، في إحتفالٍ ضخم يَضمُ العائِلَتين...

كانت "أسماء" شقيقة آدم قد حَضرت هي وَ والِدَتها قبل الدعوة بساعاتٍ قليلة لمَدِ يد العون لروان في إقامة هذه الحفلة

كانت أسماء شقيقة آدم الصغرى، فهي في العقد الثاني مِن عُمرِها...
تزوجت في عمرٍ باكر، ورُغمَ ذكائِها وتفوقها، إلا أنها لم تُكمل تعليمها بدافعِ رغبة آدم في ذلك...
ومن ثم زواجها من إبن عَمِها .

إرتدت روان فستاناً مُرصع بالكِرستال، كان أحمر اللون...
قد غَدت تبدوا وكأنها هاربة من عالم أميرات ديزني لاند...
أرفقتهُ بمجوهراتٍ أُهديت لها مِن قِبَلِ آدم في يومِ زِفافِها...
خرجت بكامِلِ أناقَتِها وكأنها تُزَفُ عروساً له مرةً آخرى...
وتركت آدم يُكمل إرتداء ملابِسهُ ليخرجا لإستقبال الحضور...
خرجت روان قبل آدم، ورحبت بكلتا العائِلَتين

وبين الحديث مع هذا وذاك، والكُلُ في إنتظار آدم، عندما تأخر، ذهبت روان لتفقدهُ
فصرخت صرخةً أفزعت كُلَ من في الحفلة...

كانَ ما شاهدهُ الحضور مَوضِعَ إرتدادة صادمة في حَدَقِ كُل من رأى ذلك...

صرخات روان التي كانت مملؤة بالحسرةِ والاوعي القاتم في ما تشاهدهُ...
يَصعُبُ عليها تصديقَ ذلك...

كما يَصعُبُ عليها تَصنيفهُ بين وَحي الخيال يكن أم في عالم الواقع ! ...

"آدم ـ ٢٧ عام ـوُجِدَ غارقاً في دمائِهِ وحولهُ المتهم به الأول" روان" زوجة المَجْنِّي عليه حين وقوع الجريمة".

كانت يَدَّي روان مُلطختانِ بِحُمرةِ دماءِ آدم
تَثْكُلهُ وتَندبُ مقتلهُ الشنيع...

إعتقلت الشرطى روان، بِكونِها المتهم بهِ الأول في
قضية مقتل آدم...

حيثُ لم يتواجد أحدٌ سِواها عند الوَهلةِ الأولى
كما أن مركز البحث الجِنائي يأخذُ ما يراهُ بأمِ أعيُنِهِ

وكل من يُحيط بالمجني عليه
جاني، حتى تثبت برائتهُ.

أُحيلت جثة آدم إلى المشرحة، للتحليل الجِنائي وتشريح الجثة...

الكُل في حالة إنهيارٍ عصبي، على مجلس الفرَح والحبور، الذي قُلِبَ رأساً على عَقب إلى مأتم

كانت والدة آدم في حالٍ يُرثى لها، طوال فترة العزاء، تُطالب بالقصاصِ لهذا القاتل عديم الرحمة، كما تُطالب أن يأخذ القانونُ مجراهُ من روان وأن تُعاقب أَشَدهُ على فِعلَتِها.

ما كان يُثبت التهمة على روان، إستجواب مركز الشرطة لجيرَانِهم

ـ مركز الشرطة :
ألم يُلحظ شيئٌ في الآونة الأخيرة بين المجني عليه وزوجَتِهِ؟
ـ أحد المستوجبين :
قبل يوم المقتل المشئُوم، إشتَدَ العِراك بينهما
وكان يُوجه الحديث لها قائلاً:
ـآدم :
أعلمُ أنكِ لم تُريدين الزواج مني
وإستناداً على قولهِ، عَلِمتُ أن زوجته دعت أم أحمد للحفل
وحينها عَلِمَ آدم أن أحمد ما زال في ذاكرة روان، وأنها على علاقة بعائِلتهِ...

حديث تابع لأحد الجيران المستجوبين:
ـ كان يصرخ بشدة ثم قال :
ـ آدم : حتى في يوم زواجِنا تطرأ ذكراهُ في يومٍ كان عليكِ ذكرى فيهِ !...

ـ السابع منٍ ذاتِ الشهر
8:00 صباحاً

أُصدِر تقرير المشرحة، حيثُ تَبَيَنَ أنَّ المَجنِيَّ عليهِ قد قُتِلَ جراءَ ٦ طعناتٍ متفرقات

جَزِع أهل آدم بعد مَعرفتهم بتقرير المشرحة ومن شدة هول الفازعة، كانت أسماء تبكي على شَقيقِها بكاءً هيستيري حتى أُغشيَّ عليها...

وفي نطاقٍ آخر، عائلة روان تقضي أصعب أيامِ حياتِها بين مقتل زوجِ إبنتهم، وبين إعتقالِها متهمةً بِقتلهِ...

7:22 مساءً

جَلَسَ والد روان ويداهُ ترتَجِفَانِ بعد أن رأى حالَ إبنَتِهِ
جُفنان منتفِخَان من شدة البكاء
وجهٌ شَاحِب بملامحٍ فاترة

ـ روان "وهي ترتجف" :
أبي، لقد جئت لرؤيتي
ـ والد روان "وهو يمسح دموعهُ" :
قلبُ أبٍ يكادُ أن يُشرخ، يحَملُ هم الجبالِ على ساعديهِ
ماذا عساني قائِلاً لكِ؟
هل أُهدأ من روعَكِ!
أم أُوَبِخَكِ فأُشبِعُكِ ضرباً على ما إقتَنَتهُ نَفسُكِ من هَلاك!...
ـروان :
ولكن، يا أبي
ـ فصفعها ثم قال :
في تلك الليلة، عندما جئتِني وحدثتيني بأنكِ لا ترغبين فيهِ، لو كنت أعلم أن جنونك بأحمد سيدفعُ بكِ لقتلِ ذاتِ الشخصِ الذي دعى أسمك للإقترانِ بحروفِ إسمه، لرميتُكِ في مستشفى الأمراض العقلية وتبرأتُ منكِ...

عندها، كانت دموع روان تَنهمر بشدة، ويداها اللاِئي ترتجفانِ ممسكتا بعصاةِ والدها لتُبَرِأ ذاتها لتلك الأَيدي الحانية
التي لطالما سهرت من أجل رؤية روان في مكانٍ، ليس قط بهذا المكان.

ـروان :
أرجوكَ يا أبي، إستمع إلي
أقسم لك إني ببراءةِ الذِئب من دمِ يوسف
أرجوكَ إرفق بحالي وأستمع إلي

حينها، أبعد والد روان يديها التي كانت تضَعَهُما على عصاتِه راجيةً مِنهُ الإستماع
ـثم قال :
هل عساكِ جابرةً هذه العصاه التي بفعلتُكِ أستندُ عليها بعدما حنيتي ظهري !...
وخرج والد روان وترك روان في حالٍ أسوأ من يوم المقتل

ـ"أحياناً سُم الكلمات يقتلُ ببطأ، حينها تتمنى أن تبتلع سمُ الطعام وتَنسى ما قِيلَ لكَ في تلك الليلة ".

ما زالت تحرياتٍ البحث الجنائي مستمرة...
9:10 صباحاً
عائلة آدم تحيط بأسماء التي تلبثُ غائبةً عن الوعي
حزناً على أخيها الذي لطالما كان سنداً مديداً لها

تصرخُ أسماء صراخاً هيستري عند إستفاقتِها
وقِيل أنها تتأمل صور آدم على هاتِفها المحمول
فلا تتحمل أجزاء قَلبها ما قد فرضهُ الواقع المرير.

12:00 منتصف الليل

أيها الطبيب
أيها الطبيب
أرجوك ساعدني
كنت بجوار أسماء وغفت عيني عنها
وعندما أستيقظت لم أجدها

أين هي
إلى أين ستذهب!...

خرج زوج أسماء ليبحث عنها
بحث عنها في كل مكان حول المستشفى
لكن محاولاتِهِ قد باءت بالفشل
زوج أسماء :
أيُعقلُ هذا!
إلى أين ستذهب

حتى وردهُ إتصالٌ هاتفي
ـ من يحادثني!
ـ والد روان :
أسرع يا بُني
قَدِمت أسماء إلى منزلنا وتبدو بحالٍ ليست جيدة
تَصرخُ وتحطم كل ما حولها
أسرع زوجها في القيادة
يا ترى؟
ماذا حدث لأسماء؟
ولمَّ قد تذهب لعائلة روان

أسماء :
سأقتُلها
وأروي ضغينتي من دِمائِها على ما فعلتهُ

لن أبرَحَ حتى يُحيط بِعُنقِها حبل المشنقة

سأستردُ دماء أخي وحرقة قلبُ أمي منها
وأستمرت في الصراخ ولم تبرحَ حتى سقطت
مغشياً عليها مثل كل مرة.

العاشر من يناير_ منزل والد روان

كان هاتف المنزل الأرضي يتصل، والكُل
يعيشُ على نبضِ أعصابهِ

أجابَ والد روان
فَتلقى الرد التالي :

_ مركز البحث الجنائي :
لقد تلقينا مستجدات في القضية
نأملُ منكم القدوم للإطلاعِ عليها
ذَهبَ والد روان مهرولاً

وعند قدومهِ، بادلهُ رئيس قسم الجنائيات القول :

ـ لقد وُجدت بصماتُ شخصٍ آخر على نافذة الغرفة التي قُتل فيها المجني عليه

وأُكتشف أنها بصماتٌ دخيلة

لا تعود البتة للمتهم به الأول "روان"

ـ والد روان :

ولكن سيدي، ما علاقة بصمات النافذة بالقضية؟

ـ المفتش :
هذه النافذة وُجِدت مكسورة حين وقوعِ
الجريمة
وقد أكدت المتهمة روان أنها تركتها مغلقة
قبل وقوع الحادثة

أمر المحقق المذكور برفع البصمات
ومطابقتها على كل أفراد العائلة
والحضور يوم الواقعة

وهكذا تَغَيَرَ مسار القضية لمنحى آخر

وفي اليوم التالي :
إستدعى المفتش العائِلتين لرفع البصمات
وهنا كانت الصدمة

تقرير مركز البحث الجنائي :
بعد رفع البصمات المذكورة في سجل ٢١
للقضية التالية
كانت البصمات مطابقة للمتهم به الثاني
"أسماء"
شقيقة المجني عليه
فأُحيلت للتحقيق

ولكنها لم تعترف
وأنكرت كل التهم المنسوبة إليها
فحُبِست على ذِمة التحقيق...

أمر المحقق بالتفتيش الكامل لموقع
الجريمة
للعثور على أداة الجريمة

كانت عملية البحث الجنائي بإستعانة
"الكلب البوليسي"
كان يدور ثم يدور
ـ ويتوقف عند حديقة المنزل
وبالتحديد تحت شُجيرة كانت في أخر
الحديقة
عندها راود المحقق الشك والرِيبة حيال
تلك الشجرة
فأمر الفريق بحفرِ المكان
وكانت المفاجئة...

وُجِدت أداة الجريمة "السكين" ملطخةً
بالدِماء
ملفوفةً بقميص من الراجح أنه قميص
يعود للمجني عليه

فرُقعت بصمات أداة الجريمة ومن ثم
مطابقتها ببصماتِ المتهمين

فكانت مطابقة تماماً لبصمات المتهم به
الثاني
"أسماء"
وهكذا وُجِدَ دليل إدانَتُها الثاني

وبعدَ التحقيق المشدد عليها
والتَضييقِ عليها للإعتراف
ومواجَهَتها بكل الأدلة المثبتة لإدَانتها
_قالت أسماء:
أجل
أنا من قتلتهُ
بمِثلِ ما قتل طموحاتي وأحلامي

حرمني من أبسط حقوقي
إقتلع مني قلائِل متطلباتي مثل أي فتاة
آخرى

كُنت في مزدهرٍ من عمري
في ريعانِ شبابي
أرنو بسقفِ أحلامي الذي قام آدم بِهَدمهِ على قلبي

هَدَم مستقبلي الذي لطالما بنيتُ فيه آمالي المرجوة

أجبرني على الزواج من إبن عمي الذي كنت آخالهُ شقيقاً لي
خوفاً من أن أجلبَ له العار
مُدعياً أن حِمل الفتاة وراعيتها يكمنُ عاراً

وعندما أراد الزواج

قد إنحاز لما إختارهُ قلبه

لأعود وأشفي غليلتي منهُ في ذاتِ ذكرى هذا اليوم

أُحيلت قضية أسماء للمدعي العام بعد إعترافها

وعندما عَلِمت عائلة آدم بهوية القاتل

سقطَت الأم من هول الصدمة، وكانت تصرخ وتقول :

_ لقد خسرت أبني والآن بُنَيتي

مكثت الأم في غصون أسبوع في غيبوبة

حتى إنتقلت إلى رحمة الله.

"قضية براءة متهم"

والكثيرون من هم بِمثل روان
إسترقت منهم الحياة بَصيصَ الأَمَلِ المِعطاء في
ظُلمةِ زنزانة
على أسرِ القضبان

ـ في بعض الأحيان تكمن الحقيقة أبعدُ
من منالِ تخيالتِنا
أبعد بكثير.

الأول من مايو

قد أدركت مقلتي روان النورَ بعد الظلمات

وعادت لعائِلتها وشقيقاتِها

بعد مرور ٦ أعوام :
أصبحت روان نصيفة المظلوم
بعد سنينٍ من الجدِ والإجتهاد

عادت لدراستها
متخِذةً قضيتها مجالاً لها

لِتنصفُ كل بريئٍ خلف القضبان
ويعودَ الحَق لأصحابهِ

وأختارت روان من مُر تجربتها أن تكون
أداةَ براءة لقضية متهم...

ـ"في بعضِ الأحيان يمكننا أن نصنعَ مِما يؤلِمُنا شيئاً جيد "

فقط إن أحسنا التعامل معهُ

ـ" لبراءة المتهم مذاقٌ أخر، والمتهمُ بريئ حتى تُثبت إدانتهُ "

الكاتبة السورية مرح إبراهيم سلوم